

بنية العقل الإعلامي العربي

د. لحسن رزاق

جامعة محمد لمين دباغين سطيف

Amerhassan17@yahoo.fr

تاريخ الوصول: 2018/05/29 / القبول: 2019/01/02 / النشر على الخط: 2019/01/05

Received: / Accepted: / Published online:

الملخص:

ينبثق النشاط الإعلامي عموماً عن منظومة من التفكير لها المسؤولية الحاسمة في صناعة التمثيل النهائي للعملية الإعلامية، ومناطق هذا الطرح هو انضباط السلوك البشري بالخريطة الإدراكية، وضمن هذا التوجه المبدئي يمتلك السلوك الإعلامي العربي خصوصيته، التي لا تتأتى من الطبيعة الثقافية التي يفترض أنه ينطق عنها وحسب، بل من طبيعة الأزمة التي مست فعالية تلك الثقافة، والتي إذا ما استقرأنا مفاعيلها الإعلامية ستوصل إلى أن نظام اشتغال العقل الإعلامي العربي يتركز على ثلاثة وحدات أساسية وهي اللذة والسلوكية التقنية والتدين الرسمي، حيث تتآلف علائقاً في بنية موحدة نعتبرها المسؤولة النهائية عن صناعة قرار إعلامي مشوش، تتحكم في درجة تشويشه أيضاً ظروف الصراع الفكري المرتبطة حصراً بالهيمنة الإستعمارية.

الكلمات المفتاحية: البنية - العقل الإعلامي - اللذة - الرسمي - التقني.

The structure of the Arab media mind

Abstract :

Media activity arises, generally, from a system of thought having the final responsibility of the creation of the final media operation's manifestation. This is due to the relationship between human behavior and the cognitive schema, on this perspective the Arab media behavior is particular; that does not only come from the cultural nature, which it must express, but also from the nature of the crisis that has touched this culture, and if we examine its media foundations we will realize that the operating system of Arab reflection focuses on three main pivots; desire, technical behaviorism, and official religiosity. These three pivots combine in a united system, which is considered the ultimate responsible for the creation of a troubled media decision, also due of the environment of intellectual conflict mainly related to colonial hegemony.

Key words; System- media thinking- pleasure- official- technical.

مقدمة :

بنية¹ العقل الإعلامي العربي

يتحدد الأداء الإعلامي - من حيث المبدأ - بمجموعة من المحددات ، التي تلفت النظر إلى ضرورة الوعي بتداخل مقارباتي أو قياسي للظاهرة الإعلامية من حيث هي سيروية تتحقق عبر موضوعها الأولي وهو التواصل . إلا أن هذا الأخير له خصوصيته التي تجعله ألصق الظواهر بالثقافة كحقيقة ومفهوم لازال لحد الآن يحتاج إلى تدقيق وتمحيص ، وإن يكن ذلك فإنه يمكن الذهاب إلى ما ذهب إليه راييموند وليامز حول اعتبار الاتصال كمقاربة علمية للثقافة².

إن الثقافة - وبعبارة عن كل التعريفات الكلاسيكية - هي في النهاية لن تكون سوى نسق حسب تفكير إدغار (ناحوم) موران ، وذلك مؤشر له دلالة خاصة ومميزة على تعقيد الحقيقة المسماة ثقافة ، وبناء عليه يمكن أن نذهب طواعية إلى ما ذهب إليه مالك بن نبي حين اعتبرها العلاقة العضوية بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع³ ، وهذا في الواقع أدعى لأن نعتبر الاتصال مقارنة علمية للثقافة ، لاسيما حين نجد أن مفهوم العلاقة يؤدي دورا مركزيا في التقدير الإستمولوجي لظاهرة الاتصال ، وفق المنهج النسقي الذي يبدأ مع القياسات السوسيومترية ولا ينتهي عند طروحات مدرسة بالو ألتو .

إن التوسيط الإعلامي إذن ينطق عن الثقافة وبها⁴ ، وهو ما يمنحنا شرعية النظر في منطوق الإعلام العربي ، من حيث هو سلوك يفترض فيه ألا يتنكر بأي حال لجذره الثقافي الذي تتحقق به بلا أدنى ريب حياته الروحية-العقلية⁵ ، وفي تقديرنا فإن السلوك الإعلامي العربي يعتره تأزم ظاهر وجلي مرده مباشرة الجذر الثقافي ، الذي له المسؤولية المبدئية في تكوين العقل العربي وبنية وطريقة عمله ، ويتدخل في ذلك أيضا ظروف الصراع الحضاري التي أوجدت ظاهرة الاستعمار وما نجم عنها من مفاعيل مؤثرة جدا على مختلف الصعد . لكن الأكيد والراجح أن التأزم طال ويطال العقل الإعلامي العربي انطلاقا من تأزم تمكن في الأساس من أن ينال من كيان العلاقة التي اعتبرناها جوهر حقيقة الثقافة ، وهذه الحال تسمي مسؤولة عن إعادة إنتاج مستمرة للأزمة

¹ يأتي استخدام مفهوم البنية ابتداء في مقالنا للإشارة إلى النظام العلائقي العميق المسؤول بوجه عام عن الهيئة الظاهرة للإعلام العربي ، وذلك أدعى لأن يكون تبنيها منا ولو ضمنيا لنموذج قياسي إرشادي ، مع سابق قناعتنا الفكرية والعلمية باستحالة أن تكون البنية مرجعية ذاتها .

² أرمان وميشال ماتلار ، تاريخ نظريات الاتصال ، ترجمة نصرالدين ليعاضي والصادق رابح ، ط 1 ، م د و ع ، بيروت 2005 ، ص 124 .

³ مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ط 4 ، دار الفكر ، دمشق ، 2000 ، ص 24 .

⁴ كما ينطق لها أيضا لأن الإعلام منتج للثقافة .

⁵ نجد هنا في العادة خلطا لاسيما حين ترجمة أعمال كانط وهيغل بين العقل والروح ، والحل المبدئي يكمن في تقديرنا عبر تركيز النظر على ماهو مثالي دون المادي (التراخي) .

(الإعلامية)، ويتجلى ذلك في ظروف نفسية-اجتماعية غير سوية وغير منتظمة تماما، تصبح مع الوقت سببا ونتيجة في الآن نفسه لتكريس التحلف الحضاري. وكان جليا أن عبرت عن ذلك الباحثة نهوند القادري حال دراستها لثقافة الفضائيات العربية بعبارة "الوقوف على تخوم التفكك"¹، لكننا سنستفيد من هذا المفهوم الحيوي المتعلق بأزمة العقل الإعلامي العربي للتعبير عن هذه الأزمة بمفاهيم أخرى لها دلالتها الخاصة، وسنعتبرها مسؤولة عن تشكيل وأداء العقل الإعلامي العربي في حال أزمته، وهذه المفاهيم هي: اللذة - التقنية - التدين الرسمي .

إننا نعتقد أن التفكك من حيث هو مفهوم معادي ومنافي للاتصال قد أفرز حقا الواقع أو الظروف النفسية-الاجتماعية التي عبرنا عنها بذلكم الثلاث المفاهيم، وأن تلكم المفاهيم الثلاثة من حيث هي مناط اشتغال العقل الإعلامي العربي، قد صارت بدورها منتجة حقا للتفكك وباعثة على التفكيك الثقافي، وقد بات الجو الذي قوامه التفكك الثقافي نظاما معرفيا لاشتغال العقل الإعلامي العربي. وتلك في تقديرنا هي أزمة العقل العربي في قطاعه الإعلامي، التي عبرت عنها الباحثة عواطف عبدالرحمن بأنها وجود عدة رؤى نظرية ومستويات أدائية تتباين أسبابها وتتفاوت تجلياتها وتداعياتها لدى كل من المنظرين وعلماء الاتصال والممارسين الإعلاميين وجمهور المتلقين².

وهكذا فإن نظام اشتغال العقل الإعلامي العربي بات فيسيفسائيا، وتتركز البنية المسؤولة عن ذلك الاشتغال حول ثلاثة وحدات أساسية، نعتقد إلى حد بعيد أنها في الآن ذاته السبب والنتيجة والمظهر والمخبر لغياب مشروع ثقافي عربي فعال على المستوى العالمي، وكذا لغياب فهم حقيقي ومؤثر للواقع المعاصر بما هو تدافع مشاريع ثقافية يروم كل منها إثبات وتكريس مشروعه الاتصالي، حين يكون الاتصال مفهوما يتأسس على الامتداد في الزمان والمكان (التاريخ والجغرافيا).

إن وحدات اشتغال العقل الإعلامي العربي هي كما يبدو من ساحة العمل الإعلامي بقطاعاته المختلفة:

1 اللذة.

2 السلوكية التقنية.

3 التدين الرسمي.

أولا: اللذة .

¹ أنظر: نهوند القادري عيسى، قراءة في ثقافة الفضائيات العربية -الوقوف على تخوم التفكك-، ط 1، م د و ع، بيروت، 2008.

² عواطف عبدالرحمن، أزمة العقل الإعلامي الأكاديمي والمهني، مجلة الإذاعات العربية، عدد 1-2011، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، ص 61.

اللذة في اللغة كما ورد في المعجم الوسيط يقال لذ الشيء لذاذا ولذاذة صار شهيا، والملذة: الشهوة¹، وفي لسان العرب الملاذ جمع ملذة وهو موضع اللذة، من لذ الشيء يلذ لذادة فهو لذيد أي مشتهى، وهي عكس الألم². وبذا يتضح مبدئيا أن المؤشر الأساس لمفردة اللذة من حيث هي متصور ذهني هو الشهوة أو كل ما دخل في حقل ودائرة المشتهى، والمقابل الأساسي للمفردة هو الألم.

إن الذي يهمنا من هذا جميعا هو أن عملية البحث والتدقيق الإيتيمولوجي مع النظر فيما يرتبط بها من المداليل اللغوية، يشرعن استخدامنا لمصطلح اللذة تأسيسا على معنى الشهوة وجميع ما يصب في حقلها الدلالي من مفردات، كما أن البحث عن اللذة مثلما يوضح زهير الخويلدي يلتقي مع الإقبال على الحياة واشتهائها، وذلك بالبحث عن سبل جديدة للحياة بكيفية جيدة، وقد يرافق ذلك تقديس الجسد والاهتمام بالفنون والصحة والاعتدال والجمال، وإطلاق الخيال وتفضيل قيم الأرض³، وهو مناط فهمنا الإجرائي لتعبير اللذة الذي تنمو قيمه الدلالية حسب المستوى الحضاري للمجتمعات، وتصبح ساعتئذ مقابله النبوية مع تعبير الألم مسألة ثانوية وفرعية إلى أبعد الحدود، لاسيما مع تزايد الرقي الحضاري للمجتمع، أما في حالة الانحدار والركود التي يسمها بشدة غياب وانعدام المشروع الثقافي، فإن اللذة في السلوك النفسي-الاجتماعي تنبني في الغالب الأعم على مؤشر الشهوة والاستهواء، وهو الأمر الذي سيجعل من العملية الإعلامية - في حدود العالم العربي والإسلامي - محض آلية لإذكاء وفقط إذكاء الجمهرة، والمعنى والنتيجة مزيد من التفكيك.

إن أبرز مظهر للتفكيك كما يكرسه العقل الإعلامي العربي في جزئياته المتعلقة باللذة يتمثل رأسا في الغلبة الواضحة لبرامج التسلية والترفيه والدراما وما شاكل ذلك، وفق مستويات متفاوتة بين المؤسسات العمومية والخاصة، وهو ذاته ما سجله الأستاذ صلاح الدين معاوي، إذ إن جديد الفضائيات العربية مع نهاية سنة 2017 وتطلعا إلى سنة 2018 هو تكريس أولوية الترفيه، حيث يبقى الإنتاج الدرامي العربي هو المجال الأبرز الذي لا يزال يحظى بحركة وحيوية لافتتين، كما يتجسم هذا الواقع العربي الجديد (كم يصفه معاوي) في مواصلة تنامي عدد الفضائيات الجديدة التي تكرر محتواها بمحالات الترفيه والسينما والدراما⁴.

¹ المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، (1425هـ - 2004)، ص822.

² ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ص4023.

³ زهير الخويلدي، فينومينولوجيا اللذة والألم، الحوار المتعدد، عدد 4442 (03-05-2014).

تاريخ الولوج : 03.03.2018 <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=41311903>

⁴ صلاح الدين معاوي، تحولات المشهد الفضائي بين انحدار الشاشات العربية وهجمة الإعلام الدولي، مجلة الإذاعات العربية، عدد4 - 2017، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، ص ص 91، 94.

يعكس الإقبال الشديد على الترفيه والتسلية في جميع مفاصل الآلية الإعلامية العربية نسقا في الفهم والسلوك، يكرس بشدة انتماء الإعلام إلى ما يقدمه الأستاذ عبد الوهاب المسيري على أنه "قطاع اللذة" (pleasure sector)، وهو حسبه أحد القطاعات التجارية في المجتمع يؤدي خدمة أساسية هي الترفيه وإشباع الملذات بطريقة شرعية أو غير شرعية، ويدرج تحته مهنا مثل الرقصات ومهرجي السيرك والمضيفات في الملاهي الليلية، كما يمكن أن يضم إليه حسب المسيري من يعمل في مجال السياحة والجانب الترفيهي من الإعلام ونجوم السينما ومضيفات الطيران.. إلخ¹.

إن حضور مسألة اللذة أساسي وحاسم جدا لفهم وتقييم الواقع الإعلامي العربي، والعقل المسؤول عن إنتاج ذلكم الواقع، ونحن في النهاية لا نناقش المسألة المذكورة من الوجهة الفلسفية، بمعنى فلسفة اللذة والألم، فذلك أمر له مضماره الإبتيمولوجي ذي الخصوصية، وإنما قد عنيينا من البداية بمعنى محدد لمفردة اللذة، كيما يشرعن استخدامنا لها في فهم وتقييم العقل العربي وإنتاجه الإعلامي الذي وجدناه ونجده في الغالب الأعم مغرقا في الاتجاه نحو الملذات.

ثانيا: السلوكية التقنية.

السلوك في اللغة - مثلما يرد في المعجم الوسيط - سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه، يقال فلان حسن السلوك أو سيئ السلوك، وفي علم النفس هو الاستجابة الكلية التي يبدئها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه². أما ما يرتبط بالاصطلاح فإن الأصل في السلوك هو الطاقة الحيوية، وهذه الأخيرة هي الغرائز والحاجات العضوية التي تدفع الإنسان وتتطلب منه الإشباع فيتحرك - قولا أو فعلا - لتحقيق هذا الإشباع، ولذا كان السلوك متوقفا على الطاقة الحيوية³، وتزداد صدقية هذا التعريف في تقييمنا بالنظر إلى النزعة السلوكية أو التوجه السلوكي الذي برز كنتاج للظروف النفسية-الاجتماعية للقرن 19م لدى الغرب تحديدا، وبرز على إثر ذلك تأسيس علم نفس الحشود على يد كل من الإيطالي سيبيو سيغل والفرنسي غابرييل تارد، وبعدهما غوستاف لوبون⁴، وقد تترجم هذا إبتيمولوجيا على المستوى الإعلامي في ميلاد نظرية الرصاصة السحرية أو الحقنة تحت الجلد، بناء على بحوث هارولد لاسويل حول الدعاية، إذ تم تشيئ الجمهور ضمن هذه الرؤية فهو يخضع من دون وعي لثنائية المثير والاستجابة، لأن

¹ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد 2، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص 297.

² المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص 445.

³ سميح عاطف الزين، علم النفس، مجلد 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1991، ص 466.

⁴ فيليب كابان وجون دورتي، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة إياس حسن، ط 1، دار الفرق، دمشق، 2010، ص 67.

وسائل الإعلام يفترض فيها أن تعمل حسب مبدأ "الإبرة المخدرة"، وهو المصطلح الذي نخته لاسويل للإشارة إلى التأثيرات المباشرة والجماعية لوسائل الإعلام على الجمهور المشتت¹.

إن فعل التشيت هو تحديدا ما يعنينا ويهمنا في التوجه السلوكي، لأن له ارتباط مباشر مع ما ارتضينا آنفا اصطلاحه بالتفكك الثقافي، إلا أن قدرتنا على استيعاب المشكلة محل التحليل والمناقشة ستكون مهلهلة إن لم نرفد مفهوم التشيت المرتبط بالنزعة السلوكية بمفهوم التشيبي، وهو الأمر الذي تتعدى فائدته مجرد منح مسوغات التأسيس المعرفي للنزعة السلوكية، إلى إزالة ما قد يلتبس حول شرعية استخدامنا لمصطلح التقنية من جهة إلحاقها بالسلوكية، فما هو تقني أو لنقل تكنولوجياي يرتبط غالبا وأحيانا حصريا بعالم الأشياء، ولفظة تكنولوجيا كما ورد في موسوعة السياسة والاجتماع للكيالي تطلق في العصر الحديث على مبادئ العلوم والمخترعات في حقول الصناعة والأجهزة والآلات والإنتاج، ليس لها مرادف عربي متفق عليه، وأصل الكلمة اشتقاق يعني علم الفنون، واكتسبت الكلمة أهمية خاصة في عصرنا الذي يسمى عصر التكنولوجيا، ويرتبط بها دلاليا مفهوم التكنولوجيا كمفهوم حديث نشأ مع اتساع الثورة الصناعية والتكنولوجية². وعلى هذا الأساس فإننا نستخدم مفهومين لهما صبغة العلم، إلا أن منبتهما هو بيئة ثقافية خاصة، وظروف نفسية-اجتماعية مخصصة، ولا يمنعنا ذلك البتة أن نقارب بهما ضمن مفهوم موحد وضعنا هو كذلك له خصوصيته التي تبدأ بالحاضنة الثقافية وتنتهي إلى حيث تتشعب مسالك الأزملة ذات الصلة بتلك الحاضنة، ولا ريب أن إحدى تلك التشعبات/التمظهرات ما أسميناه بالسلوكية التقنية.

إننا نود حصرا من اصطلاح السلوكية التعبير بنوع من التأكيد الشديد على غياب المشروع الثقافي الذي يتموضع عبر تهميش النظام الأخلاقي في التعامل اليومي تقريبا، حيث تبقى إشكالية قياس مدى التهميش أو لنقل هامش التهميش، ولكن رغم ذلك فإن ضرورة إضافة وإلحاق مفردة التقنية من حيث هي تعبير واصطلاح، يكتسي حيوية بالغة لفهم المسألة المتعلقة ببنية العقل الإعلامي العربي، فالسلوك الإعلامي بات في ظل البيئة العربية تقنيا إلى الحد الذي يمكننا الإقرار فيه بالتحلل شبه التام لتلك البيئة من أي نسق ثقافي له هوية خاصة، مع تقديرنا المسبق وبالدرجة الممكنة من الموضوعية لمسألة الهوية في الإقليم العربي، بمعنى مراعاة شتى تعقيدات الخاضعة لمحددات من داخل الإقليم العربي وخارجه، لكن المسألة باتت في الواقع المعيش خارج نطاق أي

¹ أرمان وميشال ماتلار، مرجع سابق، ص 48.

² عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، مجلد 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 781.

دائرة هوياتية بالمعنى الدقيق للعبارة، ولعل هذه الحال كانت مآلا لبداية تموضع الإعلام العربي وتلمسه لرؤى ما برحت ضبابية¹. وقد أمسى الإعلام العربي تبعا للتشخيص المذكور نافذة سحرية² بالمعنى الحرفي للكلمة لـ :

1- تكنولوجيا التمشهد (بالمعنى الماكلوهاني).

2- لذة الترفيه (بالمعنى الإبتدالي الذي يتجاوز طروحات مدرسة فرانكفورت).

3- عرفانية الدين (كما يؤسس لها تعاطفا الخطاب الإستشراقي³).

إن هذه التوصيفات للإعلام العربي تتجلى وفق المؤشرات التالية :

- نشرات أخبار (خاضعة للتوقيت الملح).

- برامج للحوارات (مناسبة).

- تكنولوجيا (التمشهد والاتصال) ذكية.

- صحفيات مع الخمار (هيئة نصف حديثة).

- صحفيات بهيئة غريبة تامة (حداثة ملتبسة).

- أشرطة وثائقية بخلفية داروينية.

- دراما اجتماعية بمنطلقات حداثة.

- أفلام ومسلسلات تاريخية إسلامية.

- حفلات غنائية ساهرة.

- فتاوى دينية (إسلامية).

¹ مثلما توضحه نھوند القادري في المرجع الذي أوردناه سابقا، أنظر ذلك: ص 60 .

² مفهوم النافذة السحرية إحدى أشكال المقاربات العلمية الواردة أكاديميا بحق الإعلام لاسيما المرئي منه، وقد استخدمناه مستندا للتقييم السلبي بحق الإعلام العربي. أنظر - في شأن المصطلح- ليلي السيد وحسن مكاوي ، الاتصال ونظرياته المعاصرة ، ط 1 ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1998 ، ص 170.

³ تعاطف لويس ماسينيون مع العلاج مثلا.

- أفلام أكشن غربية ودراما تركية (جريئة).

- أذان الصلوات أو مواقيتها.

- مباريات الرياضات المختلفة.

- فيديو كليب غنائي شرقي/غربي.

- تلاوات قرآنية وابتهاالات.

- مسابقات لحفظ وتجويد القرآن.

- مسابقات للغناء وملكات الجمال.

- رسوم كرتونية (خلفيات كونفوشيوسية وداروينية...) إلخ.

إن الذي يؤلف بين هذا المشهد التلفيقي الشامل هو التكنولوجيا الغربية متنامية التطور والمبادئ التقنية (الغربية) للعمل الإعلامي، التي يلتزمها الإعلاميون العرب على نحو حرفي تقريبا، لإدارة المشهد التلفيقي سابق الذكر. كما أن هناك عاملا آخر بالغ الأهمية في توليف مفرزات الآلية السلوكية التقنية الإعلامية العربية، لدرجة ترصيف تلك المفرزات ضمن خارطة طريق محددة، وهذا العامل هو النظام الرسمي العربي، الذي تختلف مظهراته بدرجة أو بأخرى حسب الأقطار العربية. ومن السهل علينا والحال هذه أن نقول أن النظام الرسمي العربي ما طفق يشكل المشروع الثقافي الوحيد، ومقصودنا على الحقيقة أنه جسد الحد الأقل من الأدنى للمشروع الثقافي الجامع المانع، وهو (أي النظام الرسمي) لا يحد ولا يحاول في الغالب الأعم أن يحد من السلوكية التقنية للإعلامي العربي، إنما تلخص العلاقة بينهما -فقط- في دفتر شروط.

ثالثا: التدين الرسمي.

ورد في لسان العرب بخصوص لفظة الدين أنها من الفعل دان، ومعناها خضع وأطاع وانقاد¹. ويمسي بذلك مدلول اللفظة معبرا عن حالة من القهر يجسدها فعل التدين، ولا نملك أن نجزم - ونحن نستأنس ونسترشد بالمستوى اللغوي الذي يمنحنا الشرعية الاصطلاحية - بأن في الأمر تقييدا لحرية الإنسان، بل يقول الأمر في تقديرنا إلى المستوى المؤسسي والبنائي، بمعنى الماكرو

¹ ابن منظور، مرجع سابق، ص 1467.

اجتماعي الذي طالما قابل المستوى الفردي أو الشخصي على أدق توصيف، وهي في النهاية ثنائية الفاعل/النظام التي بلغت من السوسيولوجيا جهدها.

وما قد يصدق أكثر في إثبات المعنى اللغوي العربي للدين والتدين كمعطى وكحالة سوسيولوجيتين، هو تقليب النظر في دلالة اللفظة religion، بما هي إحالة على الفعل relier، لنجد أنفسنا بعد ذلك بين يدي مفهوم النسق مروراً على جسر العلاقات الاجتماعية.

لقد كانت العلاقات الاجتماعية مناط الظاهرة الدينية على مر العصور، وهي في تقديرنا المفتاح الأبرز - على الأقل في حدود علم الاجتماع - لفك ما قد يتكاثف من غموض حول جدوى تواجد القهر في الساحة الدلالية لمفردة الدين.

إن العلاقات الاجتماعية هي تعبير عن الكلّي، وهذا الأخير هو المسؤول عن عمليات التكييف والأقلمة التي يصح معها انتساب الجزئي للكلّي، وعلى هذا وغيره من العوامل التي تتعاضد في سياقه ينهض العمران وتقام الدول. إلا أن هذه السيورة تعاني من اضطراب ملحوظ في الحالة العربية، ونحن انشغلنا بها في قطاع الإعلام بالتحديد، حيث ينحسر المد الديني ضمن تمظهر فسييفسائي يربك إلى حد بعيد مقتضى العلاقة بين الجزئي (الإعلام) والكلّي (الدين الاجتماعي¹). لكن المفارقة هنا أن حالة الإرباك التي نتحدث عنها شكلت وتشكل بمقتضى ظروف الحال الحد الأدنى من التوازن، الذي يولده في الظروف العادية مشروع ثقافي ما، وليس هذا في الواقع إلا أثر للنظام الرسمي العربي، الذي يكيف بعد التقدير والتقييم الضغوطات الاجتماعية الناجمة عن طبيعة العلاقة مع الدين الإسلامي في المنطقة العربية.

لقد أفرز هذا النهج الرسمي وضعاً إعلامياً خاصاً بإزاء الدين، حيث يعلن - مثلاً - عن أوقات الصلوات الخمس أو يرفع الأذان لها في الفضائيات والإذاعات، لكن ذلك قد يتخلل أحياناً فيديوكليات غنائية صاحبة جذا ومثيرة، كما قد يتخلل مسلسلات وأفلام أجنبية بها مشاهد جرأتها حادة حتى في المجتمعات التي صنعت بها، كما أن البث الذي يفتتح عادة بتلاوة قرآنية يختتم في الغالب بالسهرات الغنائية الراقصة، والدرس الديني الذي تتم برمجته لأحد المشايخ صباحاً أو مساءً يعقبه مباشرة وفي كثير من الأحيان فيديوكليب غنائي شرقي أو أجنبي، لا تحظى جل مشاهدته بالقبول الاجتماعي، فضلاً عن الحرج الذي تجده كثير من منشطات الحصص التلفزيونية وحتى الإذاعية مع رجال العلم الشرعي (الإسلامي)، ويجده هؤلاء الأخيرون أيضاً معهن أثناء التقديم الإعلامي، وقد تعتمد بعض الإعلاميات ممن وصفنا هيئتهن سابقاً بالنصف حديثة إلى وضع غطاء رمزي على مستوى الشعر رفعا لبعض الحرج.

¹ ذلك أن الإسلام في حقيقته دين اجتماعي وليس له اتجاه كهنوتي مثلما حدث لباقي الأديان.

إن هذا الوضع الإعلامي المرتبك إزاء الدين في غالب الوطن العربي، يعبر عن نوع من التعاقد الرسمي بين صناع القرار السياسي وصناع القرار الإعلامي، ليصبح بعدها أن نقارب السلوك الإعلامي العربي إزاء الدين بالتدين الرسمي، إنه تدين محكوم بدفتر شروط مضبوط، لكننا لا ننكر بأي حال أن دفتر الشروط الذي يجسد العلاقة التعاقدية المفضية إلى التدين الرسمي في الإعلام العربي، قد يتأسس ضمناً وتلقائياً نتيجة الضغط الاجتماعي الذي يجعل صاحب القرار الإعلامي أكثر حكمة ووعياً في صناعته لعملية التفاعل الرمزي.

رابعاً: الصراع الفكري العالمي والعقل الإعلامي العربي.

لا يمكن استيعاب ماهية العقل الإعلامي العربي دون فهم موضوعي لطبيعة النظام الدولي، وظروف الصراع الفكري التي أنتجها، حيث نتمتع بتحديدات بتلك المرتبطة بالأقاليم العربية والإسلامية، والتي نعتقد أن لها خصوصية مانعة لكل تشابه مع باقي أقطار العالم على تشعباتها الإثنية والأيدولوجية.

إن تعريفنا للصراع الفكري العالمي يتركز على مؤشر رئيسي وحاسم الدلالة وهو الظاهرة الاستعمارية¹، التي كان للعالم العربي منها الحظ الوافر، وتبعاً لذلك فإنه لما غابت - إلى حد ما - التظاهرات العسكرية لتلك الظاهرة حلت محلها التظاهرات الاقتصادية والثقافية، وهي مسنودة في النهاية - وبلا أدنى ريب - بالقوة العسكرية، التي نراها تعاود الحضور بدرجات متفاوتة كلما دعت الحاجة (الاستعمارية) لذلك².

إن الاستعمار غالباً ما نجح وينجح في تجيير ظروف الصراع الفكري ذات العلاقة بالعالم العربي لصالحه، وذلك من منطلق معرفة دقيقة بالنفسية العربية، معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في البلاد العربية حسب مختلف مستوياته وطبقاته³. وهذا الحال يسمح لنا بل ويشعرنا بإمكانية الصياغة التحليلية للمشكلة محل البحث غير بعيد عن ميدان علم النفس الاجتماعي، وهذا الأخير كان ولا زال رافداً هاماً في الدراسة الإستيمولوجية لعلوم الاتصال والإعلام، فبواسطته نفهم بشكل أفضل التعقيدات الواردة في العملية التواصلية، إلا أن البؤرة المركزية لانشغالنا ستتركز فقط في محاولة تحديد مسارات العمليات النفسية الاستعمارية التي لها علاقة وطيدة باستخدام أجهزة الاتصال الجماهيري في الوطن العربي، لصناعة وعي عربي مزيف، ومناط هذا الأمر أن الاستعمار له من الأساس دور في تكوين البنية المتأزمة للعقل العربي على مدار الفترة الاستعمارية، بعد أن كان قد تغذى على تأزمها أصلاً باستعمار البلاد العربية، ثم هو يسعى باستمرار عبر أساليب الصراع الفكري (بعد الاستقلال)

¹ مستندين في ذلك على ما قدمه المفكر الجزائري مالك بن نبي. أنظر: مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط3، دار الفكر، 2000.

² ولا أدل على ذلك حالة العراق الذي شهدنا تدمير دولته بعد إسقاط نظام الحكم فيه أميركياً وبريطانياً عام 2003 وخارج ما يسمى بالشرعية الدولية.

³ مالك بن نبي، مرجع سابق، ص16.

لاستقرار هذه البنية وتلافي أي إمكانية للتغيير، ويسنده في ذلك حسن¹ توقعه داخل عملية التفاعل الرمزي الناتجة عن المؤسسات الإعلامية التي يتحكم بها وتتوجه إلى العالم العربي، فلا غرابة إذن أن الاستعمار يندمج مع تعقيدات العملية التواصلية ذات الصبغة العربية، فهو بالتالي في حكم الوحدة المتمفصلة عن باقي وحدات نظام اشتغال العقل الإعلامي العربي.

إن طرحنا هذا يمكن أن يتأسس على مؤشرين رئيسيين نعتقد أنهما أبرز مسارين للعمليات النفسية الاستعمارية المسؤولة نهاية عن تكوين العقل الإعلامي العربي في راهنه، وهذان المؤشران هما:

1 نشأة وتطور الإعلام العربي.

2 الإعلام الدولي الناطق بالعربية.

نشأة وتطور الإعلام العربي.

نشأت الصحافة في العالم العربي من خلال المد الاستعماري وفي كنفه، ويمكن التدليل على ذلك من خلال النموذج المصري وحتى الجزائري، ففي مصر صدرت أول الأمر ثلاثة جرائد خلال حملة نابليون بونابرت (الفرنسية) عام 1798²، والأمر ذاته في الجزائر التي صدرت فيها مع قدوم الحملة الفرنسية عليها جريدتان، أما إجمالاً فإن أول صحيفة ظهرت في السلطنة العثمانية كانت "بريد أزمير" عام 1825 وباللغة الفرنسية³، وذلك قبل صدور أول صحيفة "عربية" في مصر بأمر محمد علي باشا وهي "الوقائع المصرية" عام 1828، حيث لا تزال تصدر باعتبارها الجريدة الرسمية للحكومة المصرية، وقد كانت في الحقيقة تطويراً لجريدة "جورنال الخديوي"، كما صدر تزامناً معها بعض الصحف المرتبطة بدورها مباشرة بمؤسسة الحكم في مصر⁴. وحتى على مستوى القطاع الخاص فإن أول صحيفة يصدرها فرد في مصر كانت بالفرنسية⁵ ولأحد أفراد الجالية الفرنسية بالإسكندرية، والمفارقة أنها مارست الدعاية للحكومة⁶، وهذا فضلاً عن ارتباط النشاط الصحفي (المكتوب) العربي لاسيما المصور منه

¹ المراد بالحسن هنا : الخبرة المنهجية.

² محمد فريد عزت ، مدخل إلى الصحافة ، أحمد فؤاد للكبيوتر ، القاهرة ، 1993 ، ص 17.

³ تحليل علي حيدر ، الصحافة العربية قراءة في البدايات ، <http://www.alarabiya.net/views/2009/10/11/87646.html> تاريخ الولوج: 11-10-2014.

⁴ أنظر: عبد اللطيف حمزة ، قصة الصحافة العربية في مصر ، ط2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1985 ، لاسيما الصفحة 44 وما بعدها.

⁵ لازال قطاع معتبر من الصحافة (العربية) يصدر إلى اليوم باللغة الفرنسية، والأكد أن ذلك مؤشر على معضلة ثقافية أكثر منه محاولة لتسويق مشروع ثقافي عربي أصيل، نرى من البداية أنه غائب ومغيب تماماً.

⁶ محمد فريد عزت ، مرجع سابق ، ص 18.

بالإرساليات التبشيرية الأمريكية، وصدور بعض الصحف في عواصم أوروبية أبرزها باريس. والحال ذاته إذا ما يمينا النظر شطر الإعلام التلفزيوني في العالم العربي، ففي مصر أعلنت صحيفة le progries egyptien الناطقة بالفرنسية عزم الحكومة اعتماد مبلغ مالي لبناء أول استوديو تلفزيوني يوفر خدمة البث في القاهرة عام 1947، وقد أجرت تجربة البث فيه الشركة الفرنسية لصناعة الراديو والتلفزيون عام 1951، والتي نقلت خلالها وقائع زفاف الملك من زوجته الثانية¹، وذات الأمر مع باقي الدول العربية التي دخلت في شراكة إعلامية مع الغرب حسب الوضعية الاستعمارية القديمة²، وامتد هذا الحال ليشمل أيضا تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية فقد انطلق "عربسات" لأول مرة من قاعدة فرنسية، ومشروع قناة الجزيرة - مثلا - إذا أردنا أخذه كنموذج تحليلي، ليس سوى تعريبا للتجربة التقنية والإنسانية الغربية، ويختلط فيها بجلاء ما هو خاص بما هو عمومي (رسمي). وقد يطول بنا المقام لتحليل الارتباطات ضمن السياق العربي بين ما هو إعلامي وما هو سياسي (رسمي)، وما هو خاص بما هو عمومي، ودور العقل التقني الغربي والثقافة التي تحكمه ضمن نسيج هذه الارتباطات.

الإعلام الدولي الناطق بالعربية.

يتشكل الإعلام الدولي الناطق بالعربية غالبته من القنوات الفضائية الأجنبية والموجهة حصرا إلى المنطقة العربية، والنماذج الحاضرة بقوة في هذا المجال هي قنوات:

- فرانس 24 (الفرنسية).

- بي بي سي أراييك (البريطانية).

- الحرة (الأمريكية).

إن الوجه الجدلي لوجود مثل هذه القنوات كامن في وظيفتها التواصلية، وذلك حينما يكون الاتصال وسيلة لقطع الاتصال³، فقد تكون هذه القنوات سفيرة للنوايا الحسنة ويحكمها العقل التواصلية، وقد يداخلها بعمق الفعل الاستراتيجي⁴، ونحن نرجح

¹ التلفزيون العربي: البدايات ، حلقة ضمن سلسلة وثائقية من إنتاج قناة الجزيرة ، بتاريخ: 8-12-2014.

² بمعنى أن كل إقليم عربي تعامل حصرا مع الدولة التي استعمرته في السابق، وهذا يجعلنا نقارب المسألة بمفهوم "مابعد الكولونيالية" الذي نحتة إيف لاكوست . أنظر في هذا الشأن: نورالدين ثنيو ، المجلة العربية للعلوم السياسية ، عدد32 ، خريف2011.

³ موقف فلسفي نستشفه من طروحات جون بودريار ، أنظر مثلا: جون بودريار ، المصطنع والاصطناع ، ترجمة: جوزيف عبدالله ، ط1 ، م د و ع ، بيروت ، 2008.

⁴ الفعل التواصلية والفعل الاستراتيجي كلاهما نتاج المنعطف اللغوي في حياة المفكر الألماني يورغن هابرماس، أنظر في شأن ذلك: جيمس جوردن فينيلسون ، يورغن هابرماس (مقدمة قصيرة جدا) ، ترجمة: أحمد الروبي ، ط1 ، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2015.

وبقوة العامل الأخير في طرحنا لتواجد مثل هذه القنوات، وذلك تأسيساً على ما سبق ذكره فيما يرتبط بنشأة وتطور الإعلام العربي، وعطفاً عليه نشاط من يرى أن مثل هذه الفضائيات تنطلق من دول ذات مصالح استراتيجية اقتصادية وثقافية كبيرة في المنطقة العربية، وتروج بالتالي لمضامين وأطروحات وأفكار تلتقي بالضرورة مع مصالح دولها ومع استراتيجيتها المعلنة والضمنية¹.

لقد بدأ بث هذه القنوات يسري تباعاً منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 تقريباً، لاسيما بعد سقوط بغداد واحتلال العراق، بما كان من المفترض أن يندرجنا ببداية حقبة جديدة من العلاقة بين الشرق (العربي الإسلامي) والغرب (الأوروبي الأمريكي)، حيث وتماشياً مع طبيعة هذه العلاقة تحرص الفضائيات محل انشغالنا على "تملك عقل الإنسان العربي وذائقته، بغض النظر إن كان الأسلوب إقناعياً أو إكراهياً، وهي تستند في ذلك إلى أرقى الوسائل التكنولوجية وأدقها، من أجل الوصول إلى العقول والنفوس والهيمنة سياسياً وثقافياً، والترويج لمنتجات السوق الأوروبية والأمريكية².

والسؤال المطروح هو: إلى أين يفضي بها ذلك ؟

والإجابة الواضحة في تقديرنا أن الفضائيات الأجنبية الناطقة عربياً، وعلى وفق التوصيف الذي قدمنا، تنطق عن مشروع ثقافي واضح المعالم وإن لم تنطق بلسانه، وهي لهذا السبب عامل هام في تعطيل قيام المشروع الثقافي الذي يجب أن يكون في الإقليم العربي، أو على الأقل تستفيد من غيابه، وهكذا يتكرس التفكيك عربياً بمفاعيل الصراع الفكري في الميدان الإعلامي.

خاتمة:

تتعاضد اللذة والتدين الرسمي، يجسدهما منطق السلوكية التقنية، في تآلف علائقي يعبر إجمالاً عن وضع العقل الإعلامي العربي في القطاعين العام والخاص معاً، وهو وضع غير سوي، وتوازنه قلق. ذلك أن الظروف النفسية-الاجتماعية العربية وإن كانت البؤرة المركزية الأولى المسؤولة عن إنتاج حالة التوازن القلق، إلا أنه ما طفقت ظروف خارج النطاق العربي مرتبطة حصراً بالظاهرة الاستعمارية تساهم في مفاومة أزماته التي منها أزمة عقله الإعلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

¹ النصف الناس ، الفضائيات الأجنبية الموجهة إلى المنطقة العربية: قراءة مدخلية ، مجلة الإذاعات العربية ، عدد 2-2010 ، اتحاد إذاعات الدول العربية ، تونس ، ص 13.

² نفس المرجع ، ص 14.

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.
- 2- أرمان وميشال ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة نصرالدين لعياضي والصادق رابع ، ط1، م د و ع ، بيروت 2005.
- 3- التلفزيون العربي: البدايات ، حلقة ضمن سلسلة وثائقية من إنتاج قناة الجزيرة ، بتاريخ: 8-12-2014.
- 4- جون بودريار ، المصطنع والاصطناع ، ترجمة: جوزيف عبدالله ، ط1 ، م د و ع ، بيروت ، 2008.
- 5- جيمس جوردن فينليسون ، يورغن هابرماس (مقدمة قصيرة جدا) ، ترجمة: أحمد الروي ، ط1 ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2015.
- 6- خليل علي حيدر ، الصحافة العربية قراءة في البدايات ،
- <http://www.alarabiya.net/views/2009/10/11/87646.html> تاريخ الولوج: 11-10-2014.
- 7- زهير الخويلدي ، فينومينولوجيا اللذة والألم ، الحوار المتمدن ، عدد 4442 (03-05-2014).
- <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=413119> تاريخ الولوج : 03.03.2018
- 8- سميح عاطف الزين ، علم النفس ، مجلد 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1991.
- 9- صلاح الدين معاوي ، تحولات المشهد الفضائي بين انحدار الشاشات العربية وهجمة الإعلام الدولي ، مجلة الإذاعات العربية ، عدد4 - 2017 ، اتحاد إذاعات الدول العربية ، تونس.
- 10- عبد اللطيف حمزة ، قصة الصحافة العربية في مصر ، ط2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1985.
- 11- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، مجلد 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- 12- عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، المجلد 2 ، ط1 ، دار الشروق ، القاهرة ، 1999.
- 13- عواطف عبدالرحمن ، أزمة العقل الإعلامي الأكاديمي والمهني ، مجلة الإذاعات العربية ، عدد1-2011 ، اتحاد إذاعات الدول العربية ، تونس.

-
- 14- فيليب كابان وجون دورتيي ، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية ، ترجمة إياس حسن ، ط 1 ، دار الفرق ، دمشق ، 2010.
- 15- مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ط 3 ، دار الفكر ، 2000 .
- 16- مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ط 4 ، دار الفكر ، دمشق ، 2000.
- 17- محمد فريد عزت ، مدخل إلى الصحافة ، أحمد فؤاد للكمبيوتر ، القاهرة ، 1993
- 18- المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، (1425هـ - 2004) .
- 19- المنصف الوناس ، الفضائيات الأجنبية الموجهة إلى المنطقة العربية: قراءة مدخلية ، مجلة الإذاعات العربية ، عدد 2-2010 ، اتحاد إذاعات الدول العربية ، تونس.
- 20- نھوند القادري عيسى ، قراءة في ثقافة الفضائيات العربية - الوقوف على تخوم التفكك- ، ط 1 ، م د و ع ، بيروت ، 2008 .
- 21- نورالدين ثنيو ، المجلة العربية للعلوم السياسية ، عدد 32 ، خريف 2011.